زوربا: تلك الحياة كنّا من صانعيها... وضحاياها!*

ماجد صالح السامرائي**

إذًا، هي الطبعة العاشرة من **زوربا**، أعيدُ قراءتَها بعد أكثر من أربعين سنةً على قراءتي الأولى لها، ومشاهدتها فيلمًا سينمائيًا خَلَبَنا يومها، واستأثر بحياتنا التي كانت تسعى إلى الانفلات من غير تجربةٍ مُرّة. كان **زوربا**، الرواية والفيلم، قد أخرجا كثيرين من تلك القوقعة التي وُضعتْ حياتُنا فيها زمنًا لعلّه من أقسى الأزمنة... وأكثرها متعةً. فقد كنّا نشعر أننا تغلّبنا عليه بالقراءة، والكتابة، وليل الحانات، واللهو البريء مع أحلامنا بالنساء. يومَها كان كلّ شيء ينحدر، ونحسب أننا وحدنا الذين نرتفع: بصخبنا، وأحلامنا التي لم تكن تتجاوز عتبة مقهى البلديّة في ساحة الميدان، أو تلك الفسحة الهلاميّة أمامنا لـ «مقهى التجريد» في شارع الخيام، ومن بعد ذلك صار «مقهى المعقّدين» هو موئلَ استراحتنا، قبل أن نستأنف ليلنا مع «غارديníا» أو في «الجندول» وما بينهما من مقامٍ لا تتمتّع بتلك الامتيازات من النظافة والخدمة المحترمة. فنمضي بخفّتنا الزوربويّة، المصحوبةِ عند البعض بشيءٍ من الوقار الماركسيّ، وعند بعض آخر بالإحجام عن «التهوّر» لأنّ تاريخه السياسيّ كان يقرع جرسَ الإنذار في الرؤوس مذكّرًا بأنّ للحياة صيغًا أخرى غير التي جاء بها زوربا.

لم يفتح زوربا فضاءً للنقاش واختلافات الرأي بقدر ما فتح فضاءً للحياة التي قال إنّ على الإنسان أن يختار عيشها كيف يريد. كان بعضُنا خارجًا للتوّ من المعتقل السياسيّ، وبعض آخر يهْرب من بيت العائلة ليجرّب مسؤوليّة الحياة عن نفسه، وبعض ثالث يلوك انكسارَه وهو في أوّل عهده بالحياة ـ الحلم.

وكان الجميع قد وجدوا منافذَ التعبير عن ذلك: فمن لم يجدْه في الشعر وجده في القصة القصيرة، أو المسرح، أو الرسم.

لم يكن زوربا ظاهرة تمثّلتْ في حياةٍ لها طقوسُها الخارجة على جميع الطقوس فحسب، وإنما كان أيضًا حضورًا يتمثّل في روح وجوهر. فهو، على عفويّة ثقافته، كان معلّمًا. وعلى بساطة حركتِه، كان يفتح طريقًا للتمرّد. ومن الإحساس بروح التمرّد هذه والرغبة في المغايرة، أخذ التعبيرُ الشعريّ منحى آخر قوبل بكثير من الاعتراضات؛ لكنّ شعراءه لم يبالوا بما كان يقال ومضوا. وأخذ الفنُّ القصصيُّ ما كسر الكثيرَ من اعتباراتِ «الواقعيّة الاشتراكيّة،» ولم يأبه أصحابُه لتهمة التحوّل بالإنسان الى «العبث.» وخرج الفنّانون التشكيليّون بفنونهم على «الموضوع،» فإذا بهم يدفعون بأكبر موجةٍ لكسر الأشكال القائمة. ومع هؤلاء وأولئك خرج المسرحيّون على النصّ السائد، منْكرين ما ساد من صنميّة الشخصيات وجمود الأفكار. وكان زوربا يقف على خلفيّة شيء من ذلك التمرّد المعلَن بامتيازٍ، إعلانَ حياةِ زوربا نفسِه، الذي كان يرى أنّ الأشياءَ تبدأ من فعل الإنسان لا العكس.

إلاّ أنّ زوربا لم يحظَ برضى البعض، فكان عدوًا إيديولوجيًا لهم، وإنْ كانوا يقرأونه أو يشاهدونه في السرّ فيغبطونه على تلك الحياة وهم يلعنونه في العلن، لا اختلافًا معه في ما انتهجه من حياة بل بتأثيرِ ما أحدث لهم من اضطرابٍ في الموقف. ولم تكن الحربُ معلنةً بالأسماء، وإنما محقّقةً من خلال الأفكار التي حملتها بعضُ الكتابات آنذاك. يومذاك حين اعتلى صاموئيل بيكت خشبةَ أكثر من مسرح، وجد المعترضون الإيديولوجيّون في الأمر تخريبًا صريحًا لما بنوْه من «صروح تاريخيّة.» وعندما قُدّمتْ أعمالٌ أخرى، من بينها «ضررُ التبغ،» ثارت ثائرةُ المحتجّين الذين سيعلنون ضرورة عودة المسرح إلى الشعب. أما زوربا فلم يغب: إذ أصبح هناك شعرٌ زوربويُّ الروح والنزوع، وشخوصٌ قصصيّة زوربويّة الميْل، وأعمالٌ تشكيليّةٌ تستغور تلك الروحَ التي تشطح إلى الحريّة باكتمال معناها، وروايات لبعض أبطالها مثلُ هذه الروح (لعلّ من بينها رواية **خمسة اصوات** لغائب طعمة فرمان).

ومع أنّ معظم أبناء هذا الجيل كانوا ممتلئين بأحزان السجون، فإنهم كانوا يردّدون مع كازانتزاكي: «عديدةٌ هي أفراحُ هذا العالم: النساء، والفواكه، والأفكار...» ولكنّهم كانوا يمنّون النفسَ بالنساء، فلا يلتقون منهنّ واحدةً تسدّ فراغَ حياتهم العاطفيّة، ولا يأكلون من الفواكه إلاّ أقلّ القليل لأنّ جيوبهم تشكو الخواء. وكانوا يغبطون كازانتزاكي لأنّه عبر مع زوربا بحرَ إيجة، مصرِّحًا

---

* ـ نيكوس كازانتزاكي، **زوربا** (بيروت: دار الآداب، ط ١٠)، ٢٠٠٩ .

** ـ كاتب من العراق.

بأنّه لا يعتقد «أنّ ثمة فرحًا كهذا يغرق قلبَ الإنسان في الفردوس،» بينما لم يكن الواحدُ منهم قد مضى في رحلةٍ تجاوزتْ به تلك المسافات المرصودة بين بيوتٍ افتراضيّة و«مقهى البلديّة» نهارًا ومقاهي الباب الشرقيّ أو أحد باراته الرخيصة ليلاً، وإذا تعدّينا ذلك فإلى شارع أبي نواس الذي كان البعضُ يمشيه إلى أقرب مسافاته من الباب الشرقي بصخب: فهم لا يمشون تلك المسافات كما مشاها كازانتزاكي وزوربا عابرين «من الحقيقة الى الحلم،» بل غالبًا ما كانوا يعْبرون من «الحقيقة الواهمة» إلى الهموم التي يراكمونها على أنفسهم مع الكأس الأولى، لتنتهي الجلساتُ بالبكاء مع قرب انفضاضها في آخر ساعات الليل. فقد كانت تلك الجلسات تقرّب المسافات بينهم وبين أحزانهم الأزليّة، ولم تكن تخلو من وجود بعض المتمسّكين بأفكارهم القديمة، تلك التي بصق عليها زوربا، فشجّعهم على تجاوزها بعد أن وجدوا فيها بنادقَ صدئةً لا تنفع في قتال أو صيد. كما وجدوا في روح زوربا، التي كانت تتقدّم بأسرع ممّا يتقدّم العالم، دافعًا لهم على كسر رتابة حيواتهم. ومنحوا الحريّة لأنفسهم، بينما الشارعُ من حولهم يشكو الضيقَ والحصار، والسجونُ تكتظّ بنزلائها، وقد امتدّت بين سجن القلعة في كركوك الشمال إلى سجن نقرة السلمان في بادية السماوة في الجنوب. ولعلّ كثيرين لم يكونوا يعرفون أنّ مقهى البلديّة التي تضمهم نهارًا تقع على بعد أمتار معدودة من «موقف السراي» الذي كانت تدخل إليه وتخرج منه عشراتُ الوجوه كلّ يوم، من معتقلين على ذمّة المحاكمة أمام المجالس العرفيّة العسكريّة، أو سجناء تمّ تحويلُهم من سجن إلى آخر لشدّة الزحام.

إلاّ أنّ عديدًا منهم يوم أصبحوا في المنفى أخذهم صمتٌ مقلقٌ. وأما مَن تواصل منهم مع الوطن، فراح يفتح طريقَ العودة بالكلمات. إلاّ أنّ الكثير من تلك الكلمات العائدة لم تجد الصدى الذي كانوا يؤمّلونه بعد أن وقعتْ في أحد مأزقين أو كليْهما معًا: اللكنة الغريبة التركيب والمعنى، وانبتات التواصل فيها بين همومٍ تقع على طرفين من العالم مختلفين. فهل بلغهم ما حذّر منه كازانتزاكي، في الصفحات الأخيرة من روايته، بـ «اليقين الأكبر» وقد اجتاز الجدرانَ العالية وانقضّ على روحه؟!

إلاّ أنّ الكتّاب لم يتحدثوا، وأغلبهم لم يتحدث حتى ذلك الوقت، عما أسماه زوربا «النبع البارد» ولا شربوا ماءه. ويوم وجدوا زوربا يتحدّث عنه بكل متعة، راح كثيرون منهم يرسمون «صورًا تخييليةً» لنساءٍ ربّما لم يكن بينهم وبينهنّ أكثرُ من تحيّة الصباح. لقد دخل «التخييل» حياتهم قبل أن يُتداول مصطلحًا بلاغيًا في النقد الأدبيّ الحديث بسنوات. ومع ذلك كانت متعتهم الزوربويّة بذلك كبيرة، خصوصًا حين أضحت الرواية فيلمًا ظلّت صالاتُ العرض البغداديّة يومذاك تزدحم بمشاهديه على مدى أسابيع، كما لم يحصل مع فيلم آخر إلاّ نادرًا! ويوم عرفوا، من زوربا أيضًا، أنّ «المرأة قصة خالدة،» راحوا «يستعيرونها» من الروايات والأفلام، بعد شيء من التحوير لتتناسب مع أوضاعهم الاجتماعية، وكأنها مغامرات شخصيّة.

وداخَلَ البعضَ منهم شيءٌ من روح عدميّة. فقد بدت لهم كثير من الأفكار والمفهومات التي حملوها زمنًا حتى أشقتهم أفكارًا «لها نفحة الهدم الفائقة القوة،» على حدّ تعبير كازانتزاكي. ولكنّ الجميل فيهم، كجيل، هو أنهم لم يستسلموا. كانت شعلتهم الداخليّة أكبر من أن تنطفئ. ويوم انتحر الفنّان إبراهيم زاير في بيروت، التي ذهب إليها بحثًا عن فضاءٍ أوسع لخيبته السياسيّة، وقف غيرُ واحدٍ من هذا الجيل أمام تلك الكلمات ذات الروح الزوربويّة التي تعلن أنّ الإنسان، وهو يواجه خطر الموت ويعيش الهزائم متوالية، يبقى فيه شيء من «روح بروميثيوس» بفعل ما فيه من كبرياء.

وهكذا حصد جيلُنا ما زرع: شعرًا لا يخلو من الإيمان رغم الظلام، وكلمةً تتمنّع على الوهم فلا تنقلب إليه، وأعمالاً فنيّة التقى فيها مسارُ الإنسان الأول والأخير. وبقدر ما انطوى عليه هذا كلّه من أفكار أقرب إلى الصراع، فقد كانت هناك أيضًا رؤى سلام روحيّ تريد أن تملأ العالم وأن تقول للحروب: «توقفي أيتها الشمطاء النكدة، فنحن لم نعد نحمل في أرداننا ما أورثتنا من دوافع القتل والموت.» وكان الفنّ هو أعلى مراقي تلك الروح. فهم لم يكونوا يريدون ـ كما لم يرد زوربا ـ أن يشيخ ذلك «المثال» الذي حملوه في نفوسهم المتمرّدة على زمنها الوغد. إنهم، كما زوربا، «لم يشيخوا ولن يشيخوا أبدًا.» وهم اليوم، وقد كبروا وشاخوا، وتفرّقتْ بهم مدنُ العالم، قد يؤمّلون النفس كما أمّلها زوربا: «قد نخرج عند الصباح فنجد أمامنا عالمًا جديدًا كنّا نحن قد خلقناه بأنفسنا.»

بغداد